الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٣

تفنن المابين في أكل الرشى ومنح الرتب والاوسمة

كان لرجال المابين في الارتكاب وسوء الاستعمال ظرف ورقة وتورية بديعة ، فلما أنشئ قضاء (بئر السبع) في تيه بني اسرائيل وعين له قائمقام في الاستانة قال له دولة الناظر حسبما افاد : « بالطه كيرمامش اورمانه كوندر يورم » أي اني أرسلك الى غابة لم تدخلها بلطة الحطاب . فذهب وحطب في الناس حتى عزل وأخذ تحت المحاكمة ، ثم عين في محل آخر . وهذا مثال من الف بل آلاف أمثلة للارتكاب الذي أفسد اخلاق الامة وأخرها عن اللحاق بالامم المتمدنة ، ويروى عنه الناس نوادر عجيبة واساطير غريبة تحتاج الى الجمع في كتاب او الافراغ في قالب قصصي ، وبعد ان كان تعيين الموظفين يكون بطلب الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب من المابين مباشرة !

تهافت الناس على احتجان الرتب مع لقب بك الذي لا وجود له في الحقيقة بين الالقاب الرسمية كوجود لقب باشا مثلاً ، وإنما اشتهر فريق باسم بك وفريق باسم أفندي فكانوا عند توجيه الرتبة ينظرون اذا كان الاسم مقرونا بلقب بك صدرت الارادة السنية بموجبه ونشرت في التوجيهات الرسمية ، فصار بائعو الرتب يتعمدون وضع لقب في الطلب لتصدر بموجبه الارادة السنية وتنشر في القسم الرسمي من الجرائد ، فتتناقلها الجرائد العربية وتقول وجهت الرتبة الفلانية مع لقب بك لتوهم

---

*) تابع لما نشر في (ص ٧٤٣ ج ١٠ م ١١) من رسالة محمد روحي بك الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

القارىء ان لقب بك توجيه جديد كلقب كونت أو مركيز عند الافرنج، وامتلأت دوائر الاستانة بالموظفين بلا تمييز في جدارتهم واستحقاقهم واضطلاعهم بالعمل الذي هم فيه، ولم يكن الغرض من التعيين التحري على موظف قادر على ايفاء الوظيفة حقها من العمل، بل ايجاد وظيفة وعمل للقربين والملتمس لهم أو للذين يخشى بأسهم !! فزاد عدد الاعضاء في شورى الدولة عن المئتين، ونظامهم ان يكونوا سبعة وثلاثين عضوا، وكذلك مجلس المعارف ومجلس التفتيش والمعاينة الضاغط على حرية نشر الكتب وادخالها وهو الذي محا من كتب اللغة كلمات كثيرة مثل: حرية، وطن، اختلال، انقلاب، جمعية، رشاد.... كما غيرت اسماء الموظفين من عبد الحميد وسلطاني ونحو ذلك الى اسماء اخر و بعضها حرفت وكتبت سلتاني، وامتلأت نظارة المعارف بالموظفين حتى قال ناظرها الاخير لما عرضوا عليه الميزانية: لولا وجود معاشات المعلمين لامكنني وضع الموازنة !! . فكانت معاشات المعلمين تضايقهم وهم يريدون حصر المعاشات بالموظفين من الرؤساء والاعضاء والكتاب والمفتشين، وزاد عدد اعضاء الجمعية الرسومية عن ثمانين عضوا، وكذلك مجلس المالية والاوقاف والعسكرية والبحرية وغير ذلك من أنواع المجالس ودوائر الحكومة والمعية الشاهانية، حتى ضاقت المجالس والاقلام بالموظفين وصار أكثرهم لا يجد له كرسيا للجلوس عليه !! وكانوا يأخذون رواتبهم وهم نائمون في بيوتهم.

اختلال المالية وارهاق الفلاح

اختلت الموازنة المالية اختلالا عظيما ادى بها الى حجز نحو نصف رواتب الموظفين والعساكر ومخصصاتهم في كل سنة، واستفحل الظلم في جباية الاموال الاميرية وطرح الاعشار وتحصيل رسوم الاغنام، وتسابق الموظفون الى المزاودة بأعشار الاقضية والالوية، وعدوا ذلك فضيلة وسببا مشروعا للمكافأة والترقي، والمكلفون من الزراع والفلاحين يئنون تحت اثقال هذه التكاليف والمظالم ولا ناصر لهم ولا مفكر في شؤونهم، وقلما كان يمر على القرية شهر من دون ان يأتيها المعشرون وجباة الاموال الاميرية ونصيب المعارف ومصرف (بنك) الزراعة وادارة

الرسوم الستة أي الديون العمومية والاعانات المختلفة ' وكان الظلم اشد على المسل
منه على المسيحيين الذين كانوا يحتمون بأديارهم وبرؤسأهم الروحيين ، ولقدسمع
كثيرا من الفلاحين انهم اضطروا الى بيع أراضيهم وتزويج بناتهم ليأخذوا صداق
و يعطوا للجباة مايطالبونهم به من الاموال الاميرية ! ! فصار الفلاح يتجنب زرا
الارض الا بقدر حاجته الضرورية · ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الش
مونتسكيو مؤلف روح القوانين: « ان الاراضي يقل ايرادها بالنسبة لحرية سكانها لا بالن
لخصبها » فاذا كان الفلاح حرا عمر الارض الموات وجعلها خصبة بعمله وحراث
واذا فقد الحرية أصبحت أرضه الخصبة مواتا بسبب الظلم والاستبداد · وعليه ف
مانشاهده اليوم في اوربا من العمران إنما هو نتيجة الحرية ' فحيثما توجهت فيها لا تر
الامروجا نضرة واشجارا وكروما مخضرة وانهارا جارية كأنها بستان عظيم ليس
قطعة أرض خراب

وصار رجال المابين يحرضون الولاة والمتصرفين على الاسراع بتحصيل الامو
والبعث بها الى الاستانة ' وكان القائمون باداتها لا يدرون اين تنفق وكيف تصر
لعدم نشر الموازنة المالية (Budget) بخلاف ادارة الديون العمومية التي هي تح
مراقبة الاجانب فانها في غاية الانتظام والترقي ' تزيد وارداتها في كل سنة فتد
رواتب موظفيها ومرتبات الديون بأوقاتها المعينة ، وقد حدا ذلك الدولة الى ال
الى الثقة المالية بهـا ، وأصبح أصحاب الديون في أوربا آمنين على أموالهم ،
حدثت قلاقل في المملكة العثمانية فان قيمة أسهم الديون لا تتنزل إلا قليا
واذا أردت المقايسة بين ادارة الديون العمومية و بين نظارة الماليـة فانظر
قرية من قرى الالمان أو اليهود المستعمرين في سوريا وفلسطين وما فيها من
الانتظام والعمران والترقي ، والى قرى الاهالي المجاورة لها وما فيها من الفقر المد
والخراب — يتضح لك الفرق بين الادارتين

اختلال الادارة العسكرية بادارة الجواسيس لها

اختلت ادارة العساكر البرية والبحرية ، وأصبحت لا تمرن على التعليم النار

واصابة الهدف ، ولا تساق سوق الجيش خوفا من الهيجان وحدوث الانقلاب !!
مع ان دول أوربا ولا سيما المانيا وروسيا والنمسا وفرنسا تقوم جيوشهن في كل سنة بمناورات حربية ، يحضرها الامبراطور نفسه مع أولاده وأسرته وجميع ضباط السفارات الاجنبية ، فيستطلعون أحوال الجند ويشوقونهم. وصار الاسطول العثماني الذي انفق على شرائه الملايين كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يقدر عليه لطول مكثه ، فصدأت آلاته بسبب عدم الاستعمال والجري في البحار ، واختلست أموال كثيرة من التجهيزات العسكرية ولا سيما في تجهيز الاسطول وشراء البواخر والمدرعات ، وصار الترقي في المراتب لا يبنى على القدم والاضطلاع والاستحقاق، بل على الالتماس والانتساب والرشوة ، فكان الضابط يرتقي الى المراتب الكثيرة في أوجز مدة وقد يكون لا يعرف للجندية معنى حتى ولا احترام من فوقه في الرتبة، وكان الضباط يبيعون رواتبهم التي تبقى دينا عند الحكومة للسماسرة بأثمان بخسة، حتى يبعث المئة قرش بأربعة قروش ! ويبع حُلّة (بدله) العسكري التي تشتريها الدولة بمئات من القروش بعشرين قرشا .. أي ان المستحق للراتب والحلة كان يوقع على الورقة المؤذنة بالوصول اليه على القاعدة والاصول ، كأنه استلم الحلة من مخزن الالبسة أو قبض الراتب من صندوق الخزانة ! ثم يسلمها للسمسار فيعطيه هذا في مقابلها ما يتفقان عليه ، ثم يتفق السمسار مع المحاسبه جي ومن فوقه ويربحون الفرق ، ويقيدون ذلك فى الدفاتر (ايراد ومصرف) كأنها جرت على القاعدة والاصول . وبهذا أصبح الضباط في حالة يرثى لها . وكنت ترى ضباط البحرية البالغ عددهم نحو ستة آلاف في قهوات الاستانة خلوا من العمل يتجولون في شوارعها وحاراتها ! !

اشتبهت الادارة المستبدة في أمراء العسكرية الذين تعلموا في أوربا وخدموا الامة والوطن وصارت لهم ملكة ومعرفة تامة بأحوال الزمان ، فابعدتهم عن الاستانة وأشغلتهم بالوظائف الثانوية بداعي ميلهم الى الافكار الحرة واعادة القانون الاساسي ، ولقد بلغ عدد الراجعين منهم الى الاستانة بعد حدوث الانقلاب ستين شخصا من الباشوات وأمراء العسكرية وخمس مئة ضابط ، ومنهم رجب باشا وفؤاد

باشا الشهير وناظم باشا وهو صهر عالي باشا. وأصبحت قيادة العساكر وادارة المدارس العسكرية بأيدي اناس لا كفاءة لهم وليس لهم عمل الا التجسس على أصحاب الافكار النيرة وابعادهم عن مركز الادارة، وكانوا يعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على الخلافة الاسلامية !!! فأصبح للتجسس والمراقبة دائرة من أعظم دوائر الدولة، لها مراكز وشعب كثيرة ومعاشات وافرة غير الاحسانات والانعامات!!.

فكان الجواسيس ينظمون التقارير في كل حادثة ومسألة صغيرة كانت أو كبيرة، ويختلقون المسائل ويفترونها ويصورونها في قوالب مستحيلة ينبذها العقل ويأباها أولو النظر الصحيح والوجدان السليم، وما ذلك الا لاظهار خدمهم واثبات تيقظهم ومغالبتهم لنيل المكافأة، والمابين لا يكلف من تحقيق مضمون هذه التقارير لعله يجد في مئة كاذبة واحدا صحيحا، فاذا قالوا: «فلان له قصد سيئ بالخليفة» أو «له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة» أو «عنده أوراق ضارة» كانت كل واحدة من هذه التهم كافية للدمور على منزله وتفتيش أوراقه وهتك حرمته ثم نفيه أو حبسه أو عزله وابعاده، فكانت شبههم هذه تدور على حدوث المؤامرة ضد الذات الملوكية والمس بحقوق الخلافة الاسلامية، على انهم لم يتخذوا في الحقيقة سياسة اسلامية وهي المعبر عنها عند الافرنج بقولهم «بان اسلاميزم Panislamisme» كما توجد سياسة سلافية «بان سلافيزم Panslavisme» وسياسة جرمانية «بان جرمانيزم Pangermanisme» ولا تجد في دوائر الدولة كلها قلم مخصوص للمصالح الاسلامية كما يوجد في باريس وبرلين وبطرسبرج أقلام ودوائر خاصة بدرس المسائل الاسلامية درسا تاريخيا علميا للوقوف على افكار المسلمين وهيئتهم الاجتماعية، وعلى أحوال العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها، ليكون الوزراء والموظفون على بصيرة ويقين من حقائق هذه المسائل الحيوية الاجتماعية. فقصدهم من السياسة الاسلامية انما هو أكل الحيات والتظاهر بالكرامات والتكبر على الناس والتشبه بني العباس لم تباشر الحكومة أمراً جديا لعمران البلاد واستخراج ثروتها الطبيعية والسير بها في معارج التمدن والرفاه، وتعليم رعاياها أصول الزراعة والتجارة وعقد الشركات والتعاون على مافيه نفع البلاد، بل عاكست جميع المشروعات الوطنية فكانت لا تمكن من فتح المدارس

الخصوصية أو تعليم الاولاد ولا سيما المسلمين في المدارس والبلاد الاجنبية، وحظرت تأسيس الجمعيات واطفأت حمية أرباب الهمم تذرعا بأنها تؤدي الى الثورة والانقلاب ! فكم نظر الولاة والمتصرفون شزرا الى مدرسة وطنية أسسها الفرد أو الى مدرسة سلطانية اسستها الجماعة أو الى شركة صناعية أو مالية عقدها الاهالي، وسرعان ماكانت تتعطل ويمحى أثرها، وكم منعوا الآباء من ارسال أولادهم الى المدارس الاجنبية أو الى مدارس أوربا، وكم اضطهدوهم من أجل ذلك !!

ليس ما أجرته الحكومة من مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح المرافيء التجارية وتطهير المستنقعات الا اجابة لطلب الشركات الاوربية وتوسط بعض المتنفذين للاستحصال على امتيازاتها والاستفادة بما يعود عليهم بسببها من المنافع الشخصية، فمنح الامتياز كان من قبيل الانعام والاحسان لايكاديتم لصاحبه ويأخذ به الفرمان السلطاني حتى يبيعه لشركة أجنبية ويربح منه الملايين فيوزع نصفها على الذين كانوا عونا له في الحصول على الامتياز، ويبقى النصف الآخر ربحا صافياله في مقابل اتعابه بالذهاب من المابين الى نظارة النافعة (الاشغال) والصدارة، وملاحظة الخدم والكتاب والتقرب بهم الى كبير القلم أو الدائرة، وكل زيارة تحتاج الى اكرام و (شوفة خاطر) !! . روى لي احدهم عن بعض النظار انه أوقف ختم مضبطة امتياز في مد سكة حديدية كبيرة على أخذ أربعين ألف ليرة عثمانية، وانه لم يقبل أخذ حوالة على المصرف (البنك) أو قوائم نقدية خوفا من ظهور الارتكاب، واشترط ان يكون ذهباً عيناً ! قال الراوي فجاؤا بالمال وصفوه على منضدة كبيرة مرخمة عمدا عمدا وكان عدد كل عمود خمسين ليرة فكان ذلك ثمان مئة عمود مصفوفة صفوفاً متوازية ملزوزة، وللاصفر الرنان فوق الرخام منظر عجيب، فلما تم العد والحساب قال دولة الناظر وكان مستلقيا على فراش الموت (تمامي ؟) يريد هل العدد تام فقيل له نعم ياسيدي تام، فاخرج الختم من كيسه المعلق في عنقه وختم المضبطة ثم توفي بعد ثلاثة أيام فكانت آخر ملذاته من نعيم الدنيا ! ! . ولذلك كان فريق من الكبراء والموظفين يتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب ويقبض رواتبه سلفا، وويل لعمال الخزانة ان لم يدفعوها — وفريق يتضور جوعا وهو ينتظر رواتبه المترا كمة دينا عند

الحكومة من سبعة وثمانية أشهر في السنة ، وهي التي يعول عليها في الانفاق على نفسه وعياله النفقة الضرورية ، وكان ضباط العساكر مظلومين أكثر من سواهم فكانت رواتبهم وتعييناتهم - على قلتها - لا تعطى لهم ، وليس تحت أيديهم أموال ينهبونها أو رعية يرتشون منها ، ولقد كان ذلك من أعظم أسباب الانقلاب ، قال فيكتور هوكو: « ان الجوع يثقب في قلب الانسان ثقبا ويملؤه حقدا »

سقوط هيبة الحكومة في بلادها وفي الخارج

ان اختلال الادارة وتذبذبها لم يبق للحكومة قاعدة مطردة ولا أصولا مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ، وانما اصبحت ذات قواعد مختلفة وسياسات شتى بعضها يناقض بعضها ، فكانت تمحو في الغد ما أثبتته في الامس ، وربما غيرت سياستها مرتين في اليوم بحسب الاشخاص والوقائع ، ولهذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية فتجرأن على تهديدها حتى في المسائل الحقيرة كمسألة تو بني دلوراندو التي أوجبت خروج الاسطول الفرنسي الى جزيرة مدللي (متللين) ، فصرخ إذذاك مارسل سامبا زعيم الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنسي قائلا : ماهذه السياسة الخرقاء ؟ انكم لم تحركوا ساكنا في المذابح الارمنية ولم تتداخلوا فيما توجب معاهدة برلين المداخلة فيه من طلب الاصلاح واجراء العدالة الانسانية ، والآن تتكبدون النفقات باحراق فحم الامة وارسال الاسطول لحماية نفرين من المرابين اقرضوا أموالهم على ان يكون ربحهم عشرين وثلاثين في المئة حتى أصبح مايطلب لهم عين السحت !.

وسقط اعتبارها أيضا في نظر رعاياها وصار اكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون ان يكونوا من رعيتها ، فكانوا يتعمدون بقدر الامكان عن سفارات الدولة وقنصلياتها ، وبعضهم استبدل التابعية الاجنبية بالتابعية العثمانية

كان أرباب الحمية والغيرة الوطنية من العثمانيين ينظرون الى هذه الاحوال بعيون الاسف والاستياء ويعتقدون ان مصدرها الوحيد هو الاستبداد ولا تخلص منه الا بتعليم الامة وتنوير ذهنها ، والرجوع في الاحكام الى الدستور المنسوب لمدحت باشا وان لم يكن كله من بنات افكاره . فكان الاستبداد ضاغطا على جميع افراد

الامة اذا لم يقتصر بضغطه على ضعفائها واحرارها وحزب تركيا الفتاة فقط ، بل شمل جميع افراد خاندان آل عثمان وجميع المقربين من رجال الدولة الذين افنوا اعمارهم في تأييد دور الاستبداد وجمع الاموال والوزراء والموظفين كافة وجميع الاهالي ولا سيما في الاستانة ، حيث بطلت الافراح والجمعيات المشروعة لعقد النكاح أو للختان، وحرم على الناس الاجتماع للسمر والحديث ، كل ذلك خوفا من الانقلاب ، وصار لا يؤذن لاحد بالذهاب الى أوربا ولو كان مريضا ، كما انه لا يؤذن للضباط بالتوجه الى الاستانة أو المرور بها ، وصار كبار الموظفين لا بد لهم من إذن مخصوص وإرادة سنية لحركاتهم الشخصية وافعالهم البيتية حتى زواج بناتهم وأولادهم !!!

دخلت يوما على السيد جمال الدين الافغاني وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وكانت تأتيه مائدة من (المطبخ العامر) فقال: اية فائدة من هذا القصر والخدم والمائدة وانا اذا اشتهيت أكلة بفتك (شواء) أو نشر فكر في جريدة أو التنزه في ناحية من المدينة لا استطيع . أيهنأ عيش الانسان بغير الحرية ؟ ولهذا فر الى باريس الداماد محمود جلال الدين باشا وابناه الامير صباح الدين بك والامير لطف الله بك ، وفر الى مصر احمد جلال الدين باشا رئيس الجواسيس وكثيرون غيرهم

اتحاد الارمن والاتراك في طلب الحرية

شكلت جمعية الانقلاب الارمنية بعد مذابح ساسون المتقدم ذكرها فرقة من الثائرين هجموا على البنك العثماني في الاستانة والقوا فيه القنابل سنة ١٨٩٦ ليلفتوا بذلك نظر الحكومة العثمانية والدول الاوربية الى وجوب القيام بالاصلاحات واعطاء الحرية وتعميم المساواة بين جميع الاهالي بلا فرق في الدين والجنس ، ثم ألفوا لجانا (Comités) كثيرة أهمها لجنة سيروب التي قاومت ست سنوات في جبال ساسون ، ثم حوّلت الجمعية نظرها الى جهة قافقاسيا (القوقاز) الروسية بسبب اضطهاد أميرها البرنس غاليتزين للارمن التابعين لروسيا وتسليط التتر المسلمين عليهم ، مما أدى الى حدوث مذابح باكو وفظائعها وعدة وقائع ومقاتلات ، وتصدى الثوار لقتل الرؤساء والقواد والامراء والضباط

الذين سببوا المذابح ، وكان قتل كل واحد منهم يكلف الجمعية الاموال والنفو
فقتل بليف مثلاً سبب هلاك أربعة من اعضاء الجمعية وصرف مئتي ألف فرنا
وكذلك القاء القنبلة في موكب صلاة الجمعة امام سراي يلديز فانه كلفهم خسائرجسيم
فعدلت الجمعية الارمنية بعد ذلك عن هذه الحركات ومالت الى الاتفاق مع
الفتاة فعقدت مؤتمراً في ويانة حضره جماعة من الترك والارمن والمقدونيين وا
والكرد والعرب واليهود والارناؤط ، وكان الشارع في عقد هذا المؤتمر معلو
افندي الارمني الشهير وقدتم اتفاقهم فيه على المسائل الآتية : (١) قلب الحكومة الحا
والسعي في تحقيق ذلك بجميع الوسائل (٢) تأسيس حكومة مقيدة دستورية لجميع
المملكة العثمانية (٣) استعمال جميع الوسائل الانقلابية لتحقيق هذا المقص
وذلك لان الحكومة المستبدة استعملت جميع الوسائل لخراب المملكة و
نور العلم والحرية ، فأقفلت المدارس وحبست المعلمين ونفت التلاميذ، وان الا
التي بقي فيها شيء من المدارس أنقصت التعليم فيها بايجاد مراقبة لم يسبق لها م
وصارت الجرائد لا تنشر من الاخبار الا ما يؤذن لها بنشره بعد التحريف وال
أو الاختراع من جانب المراقب . وصارت التكاليف المستوفاة بلاعدالة لا تص
على التعليم أو التبسط في الحضارة والعمران ، بل على الجواسيس والجرائد الم
الظالمة المحبذة لاعمالهم ولاسيما في البلاد الاجنبية ، وذلك لإيهام الناس ومخادعة ا
عن أحوال الممالك العثمانية .

فمنع العثمانيين من التجول والسفر ومنعهم من اخذ تذاكر الجواز (isses-port
أوجبا تعطيل التجارة ، كما ان استيفاء التكاليف الاميرية بطريقة غير
وفقدان الامن في البلاد وتراكم المحصولات وكثرة المراباة وفقدان وسائل الاخ
كل ذلك كان سببا قويا في خراب الزراعة . فأصبحت البلاد التي كانت مزرعة الد
عهد المدنيات السابقة خرابا ، وأراضيها قفرا بلقعا ، حتى هاجر منها أهلها الذين
فيها الى أمريكا وأوربا ومستعمرات أفريقيا ، ليفتشوا لهم عن قليل من ا
والامن وأسباب المعيشة ، فالمهاجرة والقحط أكملا العمل الذي بدئ بالمذابح و
الخراب للبلاد وخلوها من السكان . فلجميع ما ذكر من الاسباب أصبح الاة

السياسي ضروريا لمنع انقراض المملكة العثمانية ولتوقيف انحطاطها - تلك خلاصة المذاكرات والمناقشات التي جرت في المؤتمر

نهضة جمعية الاتحاد والترقي وانتشارها

وأما فرع جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في أوربا فانه حدث الاختلاف فيه على الرياسة، فانقسم إلى أحزاب وفارقه الكثيرون من اعضائه، ولكن صاحب جريدة مشورت بقي ثابتا يتوفر على اصدار جريدته في أوقاتها وغيرها من المنشورات وكان الدكتور نظمي بك السلانيكي الاصل وغيره من ذوي الغيرة الوطنية من خير الاعوان له، وقبل حدوث الانقلاب بأربع سنين كانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية ضعيفة عاجزة في حكم العدم، ولذلك لم يعبأ بها أرباب السياسة ولم يعتدُّوا بأن لتركيا الفتاة حزبا موجوداً، بل كانوا يرون ان هناك بعض المتشردين ينشرون أوراقا قليلة الجدوى لتخويف المابين ونيل الوظائف والاحسان، وكانوا يعدون أحمد رضا بك معاندا مصرا على طلبه لتخليد اسمه بين الفلاسفة الحقيقيين، مفضلا ذلك على حطام هذه الدنيا الفانية

تداخلت الدول الاوربية منذ أربع سنين في المسألة المكدونية أي في ولايات سلانيك وقوصوه ومناستر وطلبوا إصلاحها، فزال منها بعض الظلم وتحسنت ادارتها تحقيقا لرغبة أوربا وخوفا من مداخلتها، وسمحوا لاهالي تلك الولايات بقليل من الحرية، فنفسوا بها عن صدورهم ونظروا في شؤونهم. وكانت البلغار والروم تشكل الجمعيات السرية السياسية المعروفة باسم كوميته (Comité) فسموا الداخل فيها (كوميته جي) باضافة اداة النسبة التركية إلى كلمة كوميته الافرنجية للمحافظة على قوميتهم وحقوقهم واوضاعهم، وكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيلها ويظهرون من الحماسة والغيرة الوطنية مالا يقدر ولا يوصف. وكانت الحكومة المحلية تهابهم وتلاطفهم وتستميح رضاهم، فعز ذلك على المسلمين من الترك والارناؤط سكان تلك الولايات، واعتبروا باخوانهم في الممالك البلقانيه المستقلة استقلالا كليا أو جزئيا كرومانيا والصرب والجبل الاسود واليونان والبلغار

والبوسنه والهرسك ، فاستيقظوا من نومهم وأفاقوا من غفلتهم ، وقالوا إلى متى نبقى في هذا الظلم والاعتساف والجور والاستبداد والذل والتحقير ؟

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان عير الحي والوتد

مالنا لا نفعل كالروم والبلغار والرومان والصرب في محبة الوطن والدفاع عنه؟ ولما سألوا مشايخهم عن ذلك أجابوهم بان الاسلام يساعد ويحض على ذلك ، ووجدوا امامهم تعليمات جمعية الاتحاد والترقي فدخلوا فيها باختيار وشوق وحمية ، عارفين بما ينتجه فعلهم من الفوائد المادية والمعنوية ، فتشكل لهذه الجمعية مركز في سلانيك وفروع عديدة في جميع جهات الولايات الثلاث المقدونية ، ولقد بلغ عدد اعضاء الجمعية في سلانيك وحدها سبعة آلاف شخص ، والجواسيس غافلون لا يدرون من أمرهم شيئا ، وكان جمهور الاهالي في الولايات الثلاث المذكورة يعتقدون بانه سيصيب بلادهم ما أصاب كريد وولاية الروملي الشرقية والبوسنه والهرسك . . . الخ ، ولذلك كانوا في الباطن يتمنون نجاح الجمعية وان لم يقدروا على التظاهر بذلك .

الامير صباح الدين وسياسته

اكب الامير صباح الدين على تحصيل العلم ولا سيما بعد وفاة والده فاستنار فكره ، وجنح للحرية والاخذ بوسائل المدنية الحديثة ، فأسس حزبا سياسيا يعرف بحزب (المشروطية وعدم المركزية مع التشبث الشخصي) ولسان حال الحزب جريدة (ترقي) التركية وقد تأسست سنة ١٩٠٦ ومحررها هو أحمد فضلي بك كاتب الجمعية . فعدم المركزية (Décentralisation) يقسم إلى قسمين عدم مركزية سياسية مثل مستعمرة كندا الامريكية مع انكلترا . وعدم مركزية إدارية وهو عبارة عن توسيع اختصاص الولايات وتزييد حريتها وانتخاب المجالس العمومية فيها كما أشير اليه في المادة (١٠٨) من القانون الاساسي ، وجرى تطبيقه قبلا فتشكل لولايات الشام مع فلسطين مجلس عمومي اجتمع مرة واحدة في بيروت ، وكان ذلك في أيام ولاية راشد باشا الذي صار بعد ذلك ناظرا للخارجية وقتل في واقعة جركس

حسن بك . فمراد البرنس صباح الدين بك بعدم المركزية هوعدم المركزية الادارية كما صرح به لا عدم المركزية السياسية الذي هو عبارة عن مختارية الادارة مثل حكومة كندا

ومرادهم بالتشبث الشخصي ان لا تكون الاهالي عالة على حكومتهم بل ان يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معايشهم حتى لا يكونوا منتظرين سيب الرزق من حكومتهم والانكباب على طلب الوظائف للتعيش منها ، لان السنة في الحكومات المستبدة ان ينتظر الأولاد دائما الاعانة من أسرهم والأسر من أرباب مجالسهم وأرباب المجالس من حكومتهم . ولكن الامم الانكلوسكسونية بعكس ذلك فان أولادهم يعتمدون في تحصيل الثروة على أنفسهم ويختارون الصناعة اللائقة بهم . فهذه خلاصة افكار هذا الحزب السياسي

نهاية الفساد والخراب في احوال الدولة

زاد البلاء في السنين الأخيرة وتعسر تدوير دولاب الحكومة مع اجهاد المأمورين أنفسهم في جره ، فحدث في الأذهان كدر من الامس وخوف من الغد ، واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة و بغض وحقد كامنان في النفوس ، وعلم المقربون انهم على وشك الانقراض ، فضاق عليهم الوقت ولزمهم الاستعجال ، فتهالكوا على ادخار الاموال واقتناء العقار ، وأودع الدهاة منهم ثروتهم في مصارف أورباو أمريكا ، وتطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها واستفادوا من الحال الحاضرة بقدر ماأمكنهم . ولم يفكر الواحد منهم الا بنفسه وأولاده ثم بالاقرب فالاقرب من أسرته ، واستماتوا في سبيل الوصول الى السعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب ، واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها ، ووجهت رتبة امراء العسكرية ورتبة بالا العلمية على المشايخ ذوي التيجان والعمائم ، ومنحوا الراحة من الخدمة العسكرية هم ومن انتسب اليهم من الرفاعية في جميع المملكة فاصبحوا لاينتظمون في سلكها ، فكانت هذه المنحة من غريب التناقض ، وكان اذا انصب الانعام على فرد أو أسرة انهمل كالغيث المتواصل وانصب

كله في زرع ذاك الفرد اوالاسرة دون ان يفيض منه شيء على المزارع المجاورة ، و
قال احد الفضلاء:

أمير المؤمنين فدتك نفسي ونفس (ابي الضلال)لها فداء
أنحيه وتقتلنا جميعاً لعمرك ان ذا لهو البلاء
فلا والله ماهذا بعدل ولكن انت تفعل ماتشاء

واحتكروا أوقاف الجوامع ومزارعها بل ضبطوها ضبطاً بلا حكر ، و
امتيازات الامور النافعة للاجانب فاضروا الدولة بذلك اضرارا جمة وشرهت نفو
للعجب وتتلعت أعناقهم عظمة وكبرياء . وزاد بهم الحرص والطمع حتى فقدوا
المزايا الانسانية ، فصار الواحد منهم كأنه وحش مفترس ، ينقلب يوم سة
وابعاده عن منصب الدولة شيطانا رجيما ، كما ظهر من افعال فهيم باشا وهو منفي
بروسه الذي أهلكه الاهالي فيها ضرباً بعد إعلان الحرية

كنا أشرنا الى هذه الحالات المنكرة المكدرة، والى قرب حدوث الانقلاب في
عنوانها «حكمة التاريخ» نشرتها جريدة طرابلس الشام في عددها (٥١٧) الصا
١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٣ بعد أن بدل المراقب فيها وحرف كما أراد، ظنا من
تخفى ور بما خفيت على فطنته ودقت على فهمه ، ولكنها عندما بلغت الاستانة واطلع
الملدوغون صدر الامر بتعطيل الجريدة ، فكاد بركان الاستياء تنفجر منه فو
في عدة جهات ،لأن بقاء الحال على ماذ كر غير ممكن في القرن العشرين ، خص
وان البلاد العثمانية متوسطة بين أوربا والشرق الاوسط والاقصى . ومما زاد اختا
بالعالم المتمدن تجديد السكك الحديدية وتوارد بواخر الشركات الاجنبية
ثغورنا ، ومشاهدتنا صور السينماتوغراف وسماعنا اصوات الفونوغراف ، ور
الترام الكهربائي والحوافل والدراجات كل ذلك كان من دواعي اختلاط
وامتزاجها ، واصبحت المسافة بين الاستانة و باريس اقل من ستين ساعة بعد
كانت تقطع في شهور وأعوام

نمت النابتة الجديدة من الشبان المتعلمين في مدارس الدولة الملكية والعسكر
أو في المدارس الاجنبية التي افتتحها الاوربيون والامريكيون في الشرق رغم منع الحـ

المسلمين من دخولها والتضييق عليهم وعلى أوليائهم في ذلك، أو في المدارس الخصوصية التي اسستها طوائف الروم والارمن واليهود والبلغار، فتعلمت النابتة الجديدة من الشبان والبنات اللغات الاجنبية، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على مواضع الضعف في الدولة، وادركوا محل الخلل، وصار يتخرج في كل سنة في هذه المدارس عدد عظيم متشبعون بفكر الحرية ومتخلقون بالاخلاق الاوربية والحماسة الوطنية. فكانوا كلهم موضع شبهة أولئك الجهال المستبدين بالامر، فضيقوا عليهم واضطهدوا هؤلاء الشبان اضطهادات كثيرة شتى كالنفي والحبس والمراقبة ودهم المنازل وتفتيش الاوراق فكانوا كلهم عرضة لاستبداد المستبدين،

فلما حدث الانقلاب في ٢٤ تموز (يوليو) وانفجر في سلانيك وما جاورها من الولايات بركان الاستياء كان هؤلاء الشبان وجميع العثمانيين مساعدين ومعضدين لحزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي، ولذلك لم تحصل معارضة ولا مقاومة من احد لان الجميع مستاؤن حتى المستبدين انفسهم والمستفيدين من الحال الماضية والوزراء الذين اودعوا السجن واسترد منهم ما اغتصبوه من الاموال لان كلا منهم كان يتطلب اكثر مما ناله، ولو لم يحدث الانقلاب بالصورة التي ظهر فيها لحدث بصورة اخرى بعد تبدل السلطنة ولكان اذ ذاك مدهشا دمويا

انفجار بركان الحرية وحدوث الانقلاب في ٢٤ تموز

تسنى لجمعية الاتحاد والترقي العثمانية في سلانيك اخفاء أمرها مدة ولكن رائحتها فاحت بعد ذلك لكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والاخفاء، فاحس بها جواسيس سلانيك وبعثوا بتقاريرهم إلى المابين، فأرسلت الجواسيس من الاستانة، فقررت الجمعية اعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن، وعينت فدائيين من اعضائها بالقرعة أو بالتراضي

وكان القائمقام ناظم بك قومندان مركز سلانيك يبذل مجهوده في كشف اسرار الجمعية فذهب اذ ذاك الى الاستانة لعرض معلوماته، ورجع منها نائلا الفي قرش ضما على راتبه فزاد اجتهاده وتحريه، وطلب ثانية الى الاستانة وبينا كان على

أهبة السفر اذ فوجئ بضربة من احد الضباط فذهب الى الاستانة مجر
وحضر بعد ذلك الى سلانيك صادق باشا وماهر باشا وأمير اللواء يوسف باشا وبه
الياورية وعدة من موظفي الملكية ونظموا دفترا باسماء كثيرين من المته
بعضوية الجمعية ، وحبسوا ونفوا والقوا الرعب في قلوب الناس حتى كاد اليأ
يستولي عليهم ، فقام في مناستر صلاح الدين بك قائمقام اركان حرب والبيكبا
نيازي بك الارناؤطي بتشكيل فرقة من العساكر الوطنية وذهبوا لناحية (رس
وهي في الغرب الشمالي من مدينة مناستر على مسافة ثلاثين كيلو مترا ولحق
كثيرون من الوطنين وانور بك البكباشي صهر ناظم بك قومندان سلانيك وكان طا
الى الاستانة ووعد بمكافأة كبيرة ولكنه اختار نفع وطنه على منفعته الذاتية

ثم قتل في سلانيك أحد الجواسيس فقلقت حكومة الاستانة قلقا عظيما وطل
مفتي الالاي مصطفى افدي لتستفهم منه عن هذه الاحوال ، وضمت إلى مع
خمس مئة قرش ! ! وبينما كان خارجا من الفندق للسفر الى الاستانة جرحه أحد الضب
بحضور جم غفير ، وهرب الجارح من دون ان يعارضه أحد من الحاضرين
أخبروا عن أشكاله وصفاته ، فندبت حكومة الاستانة للسفر الى (رسنه) الفر
الاول شمسي باشا قومندان (متروبجه) فاختار من يعتمد عليهم من الضباط وتاب
من العساكر وحضر على القطار الى سلانيك ومنها الى مناستر وذهب تو الى إد
التلغراف لمخابرة المابين ، فخرج عليه أحد الضباط وقتله ، وامتنع من معه من الض
والعساكر عن الزحف على (رسنه) ومقاتلة اخوانهم

ثم قتل على هذا الوجه كثير من الجواسيس الملكيين والعسكريين فقرر مجلس
الوكلاء ارسال ثلاثين ألفا من عساكر الاناضول . ولما وصل منهم إلى سلاني
الثلاثة توابير الأول امتنعوا عن مقاتلة اخوانهم وانضموا اليهم أيضا ، فأح
المابين بأن سوق عسكر الاناضول الى الروملي إنماء لقوة الجمعية فأوقف ارسال
عساكر الاناضول الى سلانيك . ثم اجتمع في (فيرزو بك) عشرون ألفا من الارناؤ
وذهب سبع مئة من رؤسائهم الى اسكوب لاعلان القانون الاساسي والحكومة المقي
وفي يوم الخميس ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ خرج الناس في سلانيا

صباحا ووجدوا اعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تدعوهم الى الاجتماع في يوم الجمعة لاعلان القانون الاساسي والحرية ، فلم يتمهلوا للغد بل اجتمعوا في ذلك النهار في ميدان أوليمبوس على الطوار (الرصيف) في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلا إما الحرية واما الموت !!. وأول من خطب على طَنَف (بلكون) فندق (أوليمبوس بلاس) غالب افندي بالتركية ثم مانويل قره صو باليهودية (الاسبانية) ثم روصو افندي بالفرنسية وسليمان افندي بالتركية وفضلي بك نجيب محرر جريدة (عصر) بالتركية وفيلوطاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان المحكمة المخصوصة (فوق العادة) بالبلغارية وفي ختامهم عادل بك رئيس البلدية بالتركية ثم هتف الجميع « فليحي الوطن ، فلتحي الامة ، فلتحي الجمعية ، فليحي الجيش الحرية أو الموت » وأعدوا في تلك الليلة مأدبة ضربت فيها الموسيقى العسكرية على الانغام المرسيلية :

Allons enfants de la patrie le jour de gloire est arrivé (1)

وكانت ترجمت بالتركية هكذا : «قالقك أي أهل وطن شان كونلري كلدي »

وفي ليلة الجمعة وردت رسالة برقية إلى حلمي باشا المفتش العام لولايات مكدونية بصدور الارادة السنية باعادة القانون الاساسي، فاجتمع الناس في سراي الحكومة ، واعلنت الحرية والقانون الاساسي رسمياً بحضور المفتش العام ومشير الفيلق الثاني ابراهيم باشا، وموظفي الحكومة والبلدية واعضاء الجمعية وابتدأ موسم الافراح والسرور .

الخلاصة واسباب الانقلاب بلاسفك دماء

حدث الانقلاب العثماني بلا سفك دماء ولا حصول اضطراب أو قلاقل في

---

(١) المنار : هذا البيت من أبيات لحن الثورة الفرنسية وترجمته بالعربية ترجمة حرفية نظما هكذا :

هلموا يا بني الوطن فيوم المجد قد وافى

المملكة كما حصل عند باقي الامم من الانكليز والفرنسيين والامريكان والمجر والروس وغيرهم، وفي ذلك قال بعض رجال السياسة: « لا تنبت الحرية مالم تسق بالدم » ولذلك أسباب كثيرة منها :

(١) ان الحكومة ليست حكومة مطلقة كما يظنها الناس ويسميها الافرنج (Théocratique) وانما هي مقيدة باحكام الشرع الشريف الذي يأمر بالشورى ويحض عليها كما ذكر في صدر هذه الرسالة . فالانقلاب لم يضيع حقوق السلطنة والخلافة كما ضيع انقلاب الفرنسيين وغيرهم حقوق ملوكهم المطلقة المقدسة الالهية ! ! ! حتى انتصر لها فريق من الناس وقاتلوا في سبيل استرجاعها ولم يزالوا يطالبون بها في هذا القرن العشرين عصر التمدن والعلم والنور .

(٢) عدم وجود امتيازات لصنف من أصناف الامة العثمانية كما يوجد عند الفرنسيين للاشراف والرهبان امتيازات وحقوق مشروعة على الاراضي بحسب عرفهم وشرعهم القديم، ولذلك قاتلوا عليها لما حدث الانقلاب الفرنسي وحرمهم من حقهم المشروع على زعمهم واعتقادهم ، أما الانقلاب العثماني فلم يضيع لاحد حقا فان الحقوق التي كانت على الاراضي للدره بكوات (دره بكلر «*») المعروفين عند الافرنج باسم (Féodalité) وهي في المملكة العثمانية حقوق الزعامة ألغيت بعد التنكيل بالانكشارية في عهد السلطان محمود خان ، وأعطي لاصحاب هذه الحقوق ضمانة ورواتب استوفوها مدة حياتهم ومنهم من لا يزال في قيد الحياة ليومنا هذا يستوفي حقه من الخزانة في كل سنة ، ووضع أخيرا قانون الاراضي الموافق لاحكام الشرع وهو من أحسن قوانين الدولة وضعا وترتيبا كما هو معلوم عند طلبة مدارس الحقوق . فالمسلمون لا فرق في الحقوق بين الشريف منهم والوضيع وغير المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » اما الامتيازات التي وهبها السلطان محمد

(*) المنار : يراد بكلمة (دره بكلر) في التركية أصحاب الزعامة والنفوذ الفعلي في المقاطعات وقد كانت بلاد الدولة معظمها على هذا النمط ولا سيما في الاناطول فان السلطة والنفوذ كانا في أيدي هذا الصنف من الناس

الفاتح للروم وأقرّهم عليها والامتيازات الاجنبية التي أنعم بها سلاطين آل عثمان على الاجانب تفضلاً منهم واحسانا لا بحرب وغلبة فسيجري الاتفاق عليها بصور حبية يرضى بها الجميع .

(٣) ان الافراد الذين عزلوا من وظائفهم وصودر ما استحوذوا عليه من الاموال المنقولة وغير المنقولة بسبب ارتكابهم واستبدادهم يعترفون بانهم ادخروا هذه الاموال الكثيرة من غير الوجوه المشروعة بل بأكل أموال الامة والدولة بالباطل ، كما يعترف الاذكياء منهم بمشروعية هذا الانقلاب ولزومه وفائدته ، وقد صرحوا بذلك وأقروا به فلا يتصور قيامهم للمطالبة بشيء أو لاعادة الادارة السابقة المستبدة ، وليس لهم عصبية تساعدهم على ذلك ان هم أرادوا أوحاولوا . وإن الامة بأجمعها عرفت الحق من الباطل والنافع لها من الضار ، نعم ان الموظفين الذين خدموا مدة ثم ألغيت وظائفهم أو عزلوا منها لهم حق في طلب راتب التقاعد أو التوظيف في وظائف أخرى ، إذ لا يليق بشرف الامة ان تلقي على قارعة الطريق جماعة قضوا حياتهم في خدمة الادارة السابقة ولا معاش لهم ولعيالهم غير ما كانوا ينقدونه من الرواتب ، فان هذا الانقلاب الذي بدأ بالشفقة على الاهالي المظلومين من شأنه ان يستعمل الشفقة والحنان أيضا في حق الظالمين لتتم سعادة الامة ولا يلحق بأحد ضرر ولا خسران .

والحاصل ان الفضل في حدوث الانقلاب العثماني من دون سفك دم ولا حصول اضطراب وقلاقل في المملكة انما هو للشريعة الاسلامية وما في احكامها من العدل والمساواة في الحقوق . ولهذا كان رد الفعل أو الرجعة (Réaction) في هذا الانقلاب غير محتمل بل هو مستحيل لعدم وجود اسباب معقولة أو مشروعة تحفز اليه ، بخلاف ما حدث في فرنسا وأمثالها إذ كان للقائمين برد الفعل أسباب كثيرة تحملهم على القيام لاعادة الادارة السابقة . اهـ

افتتاح مجلس المبعوثان

﴿ ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به ﴾

بطرابلس الشام (*)

خلاصة الخطبة الاولى في ميدان التل

أيتها الامة العثمانية الكريمة

أهنئكِ بهذا اليوم السعيد الذي تحتفلين فيه بافتتاح مجلس المبعوثين واني لاهنئك بأمر عظيم ، أهنئك بأنك صرت بهذا اليوم أمة ، وما أحلى هذا القول في فمي ، وأحبه الى قلبي ، نعم في هذا اليوم صار يصح إطلاق لفظ الامة عليك ولم تكوني من قبله الا عبارة عن افراد متفرقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة.

يطلق لفظ الامة في عرف علماء الاجتماع والسياسة على الجمع العظيم الذي يتألف من شعوب متعددة ويرتبط بعض افراده ببعض بقوانين ومصالح مشتركة . فالاجتماع هو الاصل الذي يتحقق به معنى الامة المؤلفة من جمعيات بعضها أكبر من بعض أدناها الاسرة وهي أول اجتماع بشري وأقدمه ، وأعلاها الامة التي هي منتهى ما يصل إليه الاجتماع

هل يسوغ لنا ان ندعي اننا كنا أمة في طور الاستبداد الماضي الذي قضينا عليه القضاء المبرم في هذا اليوم ؟ كيف وقد كنا ممنوعين من كل معنى من معاني

---

*) احتفل بطرابلس كسائر البلاد العثمانية بافتتاح مجلس المبعوثان يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة فخطب صاحب هذه المجلة في الاحتفال العام بميدان التل امام هيئتي الحكومة الملكية والعسكرية وجمهور الاهالي ثم خطب في نادي الجامعة العثمانية امام الهيئتين ثم في نادي جمعية الاتحاد والترقي وهذه خلاصة ماقال

الاجتماع حتى في الاسرة فقد صار الاب يهرب من ابنه والابن ينفر من أبيه والاخ يفر من أخيه خوفا من تجسس بعضهم على بعض ، وحتى صار الاجتماع في الاعراس والمآتم مخوفا ومهددا في دار السلطنة !! منع الاستبداد الماضي ان يجتمع الناس للشكوى من الظلم بأنفسهم أو بكتابة « المحاضر » وفرض عليهم ان يشكوا منفردين وان كان ما يشكون منه مشتركا بل منع شهادة التواتر الشرعية لانها لا تحصل إلا من جمع كثير · فالافراد الذين يمنعون من أصغر أنواع الاجتماع ويهددون بالعقاب عليه كيف يسوغ لهم ان يدعوا أرقى أنواعه وأعلاها ؟

اليوم قد تحقق زوال ذلك الاستبداد المفرق فاجتمع المبعوثان الذين اختارتهم الشعوب العثمانية لينوبوا عنها في القيام بمصالحها العامة كوضع القوانين والمراقبة على الحكام العاملين فبهذا الاجتماع تحقق تكوّن الامة

فهذا اليوم هو العيد الوطني الاكبر العام لجميع العثمانيين فان ما عداه من الاعياد الدينية وغير الدينية خاص ببعض الشعوب والاجناس أو بعض الاديان والمذاهب، وفي هذا اليوم يحتفل بهذا العيد المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم ، يحتفل به التركي والعربي والالباني والرومي والكردي والارمني ، يحتفل به العثمانيون في البلاد العثمانية ، وحيثما كانوا من البلاد الاجنبية ، يحتفلون به مجتمعين ممتزجا بعضهم ببعض لانه عيد الجميع

هذا الجمع الذي نحن فيه يمثل لنا احتفالا من تلك الاحتفالات الكثيرة · أما ترون فيه الحاكم السياسي والاداري والقاضي الشرعي وأمراء العسكرية وغيرهم من رجال الحكومة ممتزجين بعلماء الدين الاسلامي وقسوس النصرانية وسائر أصناف الامة من الزراع والصناع والتجار والعمال وتلاميذ المدارس (١) والبشر يتدفق من وجوه الجميع لان العيد هو عيد الجميع

ثم انني أهنئ الامة في هذا العيد السعيد بمعنى آخر وهو انها قد صارت في هذا اليوم حاكمة لنفسها بنفسها فان المبعوثين الذين اجتمعوا في هذا الوقت المبارك في دار السلطنة لينظروا في قوانين البلاد وكيفية تنفيذها فيقروا ما يشاؤن ويغيروا

(١) ذكرت هذه الاصناف مع الاشارة الى كل صنف من المتصرف الخ

ما يشاؤن لم يكن السلطان هو الذي اختارهم وولاهم هذا العمل ولا غيره من رجال الحكومة ، وليس له ولا للحكومة ان يختاروا غيرهم عند انتهاء مدتهم أو يعيدوا انتخابهم، وانما كان هذا من الامة فهي التي أنابتهم عنها للنظر في شؤونها لأن هذا الحق هو لها دون غيرها فهي إذن الحاكم الاعلى وجميع الحكام من أعلاهم الى أدناهم مستأجرون لها بمالها لاجل ان يقوموا بما لابد لها منه ولا غناء عنه من المصالح العمومية ملتزمين في ذلك شريعتها وقوانينها التي ارتضتها لنفسها

في هذا اليوم نالت الامة هذا الشرف العظيم بالفعل ، وكانت من قبل مستعبدة للحاكم المستبد يتصرف في أموالها وأرواحها وحقوقها كما يشاء، ولا يسمح لها ان تقول ولا ان تفعل الا مايدل على السمع والطاعة والخضوع للعبودية

بقي ان تعلموا أيها الاخوان أن حكم الامة لنفسها محصور فيما ذكرنا من اختيارها وانتخابها لمن ترى فيهم الكفاءة والاستعداد لوضع القوانين العادلة لها والمراقبة لتنفيذها والنظر في مصالحها العامة كعلاقة الدولة مع الدول الاجنبية وليس منه ما رأيناه من تجمهر بعض الافراد واجتماعهم في دار الحكومة لإلزام بعض الحكام بما يرونه ويرغبون فيه فان هذا هو عين الفوضى والخلل لاتصلح معه حال ، ولا يستقر نظام ، ونسأل الله ان يتم علينا هذه النعمة ويوفق نوابنا الى ما فيه خير الملة والامة .

* * *

خلاصة الخطبة الثانية في نادي الجامعة العثمانية

أحب أن أقول كلمة وجيزة في معنى الثقة بنجاح مجلس الامة ودوام الدستور: سمعت كثيرا من الناس يدعون الله تعالى بمثل قولهم « الله يتم بالخير » فكان يسرني هذا الدعاء من جهة ويسوئني من جهة أخرى . يسرني لانه صادر عن غيرة وحرص على نعمة الدستور وخوف على مجلس المبعوثين الذي يكفله ان يفشل أو يصيبه كيد الكائدين ، ويظفر بمراده حزب المستبدين المتقهقرين، ويسوئني بما يظهر من فحوى القول ولحن الدعاء ، من ضعف الثقة وتغليب الخوف على الرجاء ، فان هذا الخوف يكاد يقرأ على الوجوه ، ويسيل من الالسنة متدفقا عن القلوب ،

اني أدعو مع الداعين بأن يتم الله عملنا بالخير ويجعل النهاية خيرا من البداية فاننا لا نستغني عن الدعاء ، في السراء ولا في الضراء ، ولكنني أدعو وأنا ممتلئ القلب بالأمل والرجاء ، ولست أرى للخوف محلاً بفضل الله وكرمه فان حالنا اليوم لا تقاس على حالنا من مدة ثلث قرن كامل أيام عقد مجلس الامة الاول ثم حله الاستبداد فلم يلق في حله مقاومة ولا ملاما ، بل كان برداً وسلاما ،

الفرق بين مجلسنا اليوم ومجلسنا في ذلك الوقت بعيد جدا ، ان ذلك المجلس لم يكن بسعي الامة ولا برأيها ولم تكن عالمة به ولا مستعدة له ، وإنما هو من صنع مدحت باشا ابي الحرية وبعض اخوانه الوزراء والكبراء فهم الذين وضعوا القانون الاساسي ، وبسعيهم ألزموا السلطان بقبوله فأظهر القبول وأمرت الوزارة بانتخاب المبعوثين فانتخبوا واجتمعوا ولما تفرق شمل هذه الوزارة حل السلطان ما كان منعقدا ، وفرق ما كان مجتمعا ، فكان ابطال « مجلس المبعوثان » أسهل عليه من إبطال نابليون لمجلس النواب ، إذ لم يكن له من الامة عضد يؤيده ، ولا من الجيش نصير يحفظه ويعضده ، أطلقوا على ذلك المجلس لقب « أوت أفندم » (١) إذ قالوا ان الاعضاء كانوا يصادقون على كل شيء تلقيه اليهم الحكومة بكلمة « أوت أفندم » فلما أراد السلطان فض المجلس قال لهم مندوبه : اخرجوا واذهبوا إلى بلادكم ، فوضعوا أيديهم على جباههم « إشارة الطاعة » قائلين « أوت أفندم » وولوا منصرفين ، فما كان لهم من فئة ينصرونهم وما كانوا منتصرين ،

ماذا كان من أمر القوة العسكرية كالشرطة وغيرها ؟ انها هددت المبعوثين ذوي الجرءة وأنذرتهم البطش بهم اذا لم يسرعوا بالسفر من الاستانة ، فذهبوا مسرعين ذلك بأن الاستبداد خاف من بقائهم ان يحدثوا هنالك تأليبا للناس ويحملوهم على المطالبة ببقاء مجلس الامة والمحافظة على القانون الاساسي ، على أن الامة نفسها لم تكن تحفل بذلك ولا تعرف قيمته ولذلك لم يظهر منها أدنى اهتمام في مكان ما

أما الآن فقد تغيرت الحال ، واستبدل الله أقواما بأقوام ، فقد نلنا الدستور وأعدنا القانون الاساسي بسعي احرار الامة النابغين ، ومساعدة الجند وضباطه المستنيرين ،

(١) كلمة تركية معناها : نعم ياسيدي

لا بسعي أفراد من الوزراء يمكن أن يصيبهم ماأصاب مدحت باشا واخوانه من نفي واغتيال فيذهب الدستور ومجلس الامة ويموتان بموتهم. كلا إن من ورائهما ذلك الجند الباسل الذي ساعد احرار الامة على نيل هذه الرغيبة ولولاه لم نصل الى هذه النعمة ، من غير خطر على الدولة والامة ، ومن ورائهما احرارنا المنبثون في جميع الولايات العثمانية ينفخون روح الدستور فيها

تشهد أم أوربا كلها بأن الجيش العثماني أشجع جيوش العالم وأشدها بأسا وثباتا في ميادين الجلاد حتى قال الجنرال مولتك القائد الالماني الشهير الذي نكل ذلك التنكيل بالفرنسيس: اعطوني مئة الف جندي عثماني افتح بهم اوربا كلها. ولكنهم كانوا يقولون ان هذا الجيش الباسل ينقصه الضباط والقواد العارفون الصادقون. والآن يوجد عندنا عدد عظيم من هؤلاء الضباط الذين تعلموا أحسن التعليم وتربوا أعلى التربية وهم الذين كانت تطاردهم السلطة المستبدة الماضية خوفاأن ايقضوا على استبدادها حتى شتت شمل الكثير منهم فكان منهم المسجونون ومنهم المنفيون ومنهم الهاربون وقد بقي في الجيش العامل منهم من قلب تلك السلطة وأراح الله البلاد العثمانية من شرها فهل نخاف اليوم على مجلس الامة وقد عاد أولئك الضباط الكثيرون من سجونهم ومنفاهم وانضموا الى اخوانهم العاملين في الجيش وكل منهم يفدي الدستور ومجلس الامة بروحه ويبذل دونها آخر نقطة من دمه ؟

كلا ان العارف بحال الدولة والجيش وبما أتته جمعية الاتحاد والترقي من الاحتياط والتدبير للمحافظة على الدستور وحماية مجلس الامة لايخالج صدره أدنى خوف على المجلس في هذا اليوم وإنما كنا نخاف على الدولة في دور الانقلاب من الخارج ، كنا نخاف ان تقوم في وجهنا أوربا فتفسد علينا عملنا وتضطرنا الى الدخول في حرب لاتؤمن عاقبتها ، أما وقد لقينا من الدول الاجنبية ميلا وانعطافا عظيمين الا ما كان من ضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى أملاكها ومن إعلان البلغار الاستقلال ولم يكن في ذلك أدنى خطر على حكومتنا الجديدة ولله الحمد والمنة ، بل رأت النمسا الحرب الاقتصادية التي ناجزتها بها الامة العثمانية ماجعلهاتندم على مافعلت وتود إرضاء الدولة العلية

أما المشاغب الداخلية التي يحركها في بعض الولايات انصار الاستبداد من حزب التقهقر كالعراق والشام والحجاز فلا خوف منها ولا خطر فاذا قام مثل طالب الرفاعي، يثير حزبه من أكلة الافاعي ، ليفسدوا في الارض و يؤلبوا الاشقياء في ولاية البصرة على الدولة فان قيامه هذا لا تأثير له، ولا يعجز الحكومة الحرة استئصاله ، فان لديها من الرجال من يأكلون أكلة الافاعي ، فلا يعجزهم التنكيل بهذا الرفاعي ، كما نكلوا قبله بذلك الشقي الكردي، فسيحبط عمل المفسدين و يستقر الامن في جميع الولايات العثمانية عن قريب ان شاء الله تعالى

ومن الناس من يخاف ان يفشل مجلس الامة ويعجز المبعوثون عن القيام بما نيط بهم وعهد اليهم من مصالح الدولة والامة ، وانني أصيح بأعلا صوتي ان هذا الخوف في غير محله أيضا . ان المجلس السابق على ما كان عليه من الضعف وماقيل من ان جميع أعضائه أرادوا ان يكونوا من حزب الحكومة حتى لقبوا بكلمة «أوت أفندم » لخضوعهم لما يراد منهم — على هذا كله قد ظهر من بعضهم أفكار وآراء حسنة واستقلال يرجى خيره لودام فكيف يكون مجلسنا اليوم وقد ارتقت الامة بالنسبة الى زمن المجلس الاول في الاستعداد والمعارف والافكار بالرغم من اضطهاد الحكومة الاستبدادية للعلم والحرية حتى انها بنبوغ الكثيرين من رجالها قد انتصرت على الاستبداد وهو — كما قال الاستاذ الامام — في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، و يد الظالم من حديد ، والناس عبيد له أي عبيد

نعم ان مجلسنا الذي نحتفل بافتتاحه اليوم مؤلف من طائفة من الاحرار المتطرفين وطائفة من المحافظين الجامدين ،وفيه عدد قليل من المعتدلين ،وكثير من رجال العلم والدين ، وانني أرجو — كما يرجو كثير من محبي الاعتدال — ان يكون تأليفه من هذه الطبقات المختلفة التي تمثل الامة كلها أقرب الى النفع وأبعد عن الخطر فانني أعرف كثيرا من احرارنا المتطرفين يميلون الى العجلة في الاصلاح، وقد يكون من المستعجل الزلل ،ومن تأنى نال ماتمنى، والعجلة في طور الانتقال من حال الى حال لاتخلو من خطر أو ضرر فان خاب الامل (لاسمح الله)وضعف المجلس عن الاصلاح المطلوب

الآن فان جمعية الاتحاد والترقي المباركة التي أخذت على نفسها كفالة الدستور تسعى عند الانتخاب الثاني وتجتهد في جعل جميع الاعضاء أو اكثرهم من نابغي الامة ونحمد الله ان في أمتنا من النابغين ، من يشهد لهم بالفضل والعرفان ساسة الاوربيين ، ناهيكم بأولئك الكرام الذين احدثوا هذا الانقلاب العظيم الذي ادهش عالم المدنية بما دل عليه من الحكمة والاعتدال

من الخطإ العظيم ان نطالب المجلس بأن يصلح حال الدولة ويرقي الامة في زمن قريب فان التدريج سنة الهية في الارتقاء ، والطفرة محال لا يطلبها العقلاء ، وإننا واثقون — مع الاتكال على معونة الله وتوفيقه — بأن يكون لمجلسنا من الخدمة النافعة ما تقتضيه مصلحة الامة في حالها الحاضرة ، آمين



* * *

خلاصة الخطبة الثالثة في نادي جمعية الاتحاد

اننا منذ أعلن الدستور ، في فرح وسرور ، الى أن أتم الله سرورنا في هذا اليوم السعيد ، الذي هو للامة العثمانية اكبر عيد ،

كانت أسباب سرورنا في الاشهر الماضية سلبية وسبب سرورنا اليوم ايجابي وجودي ، سررنا منذ اعلن الدستور بأننا صرنا آمنين على أنفسنا أي لا نخاف ان نؤخذ بتهمة جاسوس ولا وشاية واش ، آمنين على بيوتنا أي لا تستطيع الحكومة أن تدمر علينا فيها ليلا أو نهارا للبحث عن كتب العلم وصحف السياسة التي كانت تسمى في عرفها بالاوراق الضارة أو « المظرة » ، سررنا بأننا صرنا أحرارا لا يمنعنا أحد مما نريد من التعليم والتربية ولا من اظهار استعدادنا في أي عمل من الاعمال ، سررنا بأننا صرنا آمنين على أموالنا لا يستطيع أحد أن يضرب علينا ضرائب ولا أن يأخذ منا أموالا لا يفرضها علينا الشرع الذي نعتقده أو القوانين التي يضعها لنا نوابنا الذين انتخبناهم للنظر في مصالحنا — كل هذه الفوائد التي استفدناها من الدستور مذ أعلن الى اليوم معناها سلبي تفسر بلا لا لا

في هذا اليوم تبتدىء المنافع الايجابية فقد اجتمع وكلاء الامة الذين أنابتهم

عنها للقيام بما يعزز دولتها ويرقي شؤونها ، واننا ننتظر من وراء ذلك من الفوائد ما ينمي ويزيد مع الايام والسنين الى آخر الدهر ، اننا نهنيء أنفسنا بأن الامة قد صارت مذ اليوم حاكمة لنفسها وأمرها في يدها ، فما الذي يجب عليها لتكون محسنة في هذه السلطة وقادرة على استدامتها وحفظها ؟ يجب أن تُعنى بأن تكون أمة دستورية بالطبع مستقلة بالذات متحلية بالمعارف والاخلاق التي تعتز بها الامم بأن تحاول أن يصير كل فرد من أفرادها اهلا لان يَختار نواب الامة عن بصيرة أو يُختار هو بالاستحقاق

أول ما يجب علينا أن نفكر فيه ونتوجه اليه هو أن نتولى نحن بأنفسنا إصلاح أمورنا ولا نتكل على الحكومة في عمل من الاعمال التي يفرضها القانون على رجال الحكومة . فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد اليهم بالصدق والاستقامة ، ويجب أن يكون لهم منا عون ومساعد على ذلك ، وأن نتولى نحن سائر الامور التي تحتاج اليها الامة كتربية الاولاد ، وما يتعلق بالثروة والاقتصاد

قد تعودنا أن ننتظر كل اصلاح من الحكومة ولذلك اصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها ، ولا يزال كثير منا ينتظرون أن تصلح لهم الحكومة ماء البلد ، وتمهد لهم الطرق ، وتمد لهم خطوط الحديد ، وان اتكال الامة على الحكومة في كل الامور العامة صار مذ اليوم من التناقض أو مما يستلزم التناقض ، فبينا هي تفتخر بأنها صارت حاكمة لنفسها متولية لامورها اذا هي تتبرأ من كل عمل لها وتلزّه بالحكومة لزا ، وتلصقه بها الصاقا ، وان لم يكن مما يعمل مثله الحكام . فالحكومة على المعنى الاول افراد من الامة — في الغالب — تستأجرهم بمالها للقيام بأعمال مخصوصة لا تستغني الهيأة الاجتماعية عنها على الوجه الذي تحدده شريعتها (أي الامة) وقوانينها التي يضعها نوابها الذين اختارتهم لذلك ، وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة والامة رعية لهم ليس لها من أمرها شيء فهم يسوسونها كما يسوس الراعي غنمه ، أو سادة يتصرفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم بين الامرين !!!

انما فشل مجلس المبعوثين السابق لانه لم يكن من جانب الامة ولا كانت الامة كافلة له ولا عارفة قيمته ، ولم يكن المرحوم مدحت باشا واخوانه الذين وضعوا

القانون الاساسي وأسسوا مجلس المبعوثين يجهلون ان الاصلاح الحقيقي الذي يثبت ويدوم إنما يكون بتربية الامة وتعليمها حتى تصير أمة دستورية بالطبع لاتقبل الحكم الشخصي بحال من الاحوال ، ولكنهم رأوا هذا الطريق طويلا يحتاج الى عشرات من السنين ؛ ورأوا الاخطار مهطعة الى الدولة ، وأعناق الدول الطامعة ممتدة اليها ، وبراثنها ناشبة باطراف جسمها ، فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل الاصلاح من جانب الحكومة ؛ فعملوا ماعملوا وألزموا السلطان بإعلان القانون الاساسي . ولا يشك عاقل في كون الإصلاح اذا جاء من جانب الحكومة، يكون أسرع من مجيئه من جانب الامة ؛ إذا هو ثبت ودام ؛ ولكن ثباته ودوامه عزيز المنال ، بل هو مع جهل الامة من قبيل المحال ؛

ان الإصلاح في الأمم لا يأتي الا بالتدريج وهو انما يكون أولا بنبوغ بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتى تكون بهم الامة من الامم الحية العزيزة القوية ، فيكون مثلهم فيها كمثل الشجرة المثمرة التي يبدو صلاح ثمراتها طائفة بعد طائفة ، وان من الشجر ما تكون بواكر ثمره غير جيدة ويجيء الجيد بعد ذلك كشجرة التين فان أول ثمرها الذي نسميه (الدافور) لا يجدي ولا يفيد ، ولكنه يكون مبشرا بماوراءه . ولقد كان شهيد الحرية والدستور مدحت باشا وإخوانه من قبيل (الدافور) من شجرة التين من حيث انهم كانوا مقدمة لصيرورة الامة العثمانية دستورية اذ تحقق ذلك من بعدهم ، ولم يتم في عهدهم ؛

إن أول شيء يجب أن نوجه همتنا وعنايتنا اليه ، ونعول في حفظ شجرة الامة عليه ؛ هو التربية والتعليم ، اللذان يكثران فينا عدد النابغين ، فان الاحرار الذين قلبوا لنا الحال ، ونلنا بسعيهم هذه النعمة ؛ كلهم من ذوي التربية العالية ؛ الواقفين على العلوم العصرية التي عليها مدار العمران وارتقاء الممالك . وان جمعية الاتحاد والترقي التي نشيد بذكر فضلها قد تأسست أولا في المدرسة الطبية العسكرية في الاستانة ثم كان لها تأسيس آخر منذ عهد قريب

اخبرني بعض من تخرج في هذه المدرسة أن الشعور بسوء حال الدولة وبما ينذرها من الخطر قد بلغ من نفوس التلاميذ فيها مبلغا عظيما حتى ان الصائح بكلمة الدعاء

للسلطان في الوقت المعتاد صاح مرة « بادشاهم جوق يشا » ففتح التلاميذ أفواههم ولكن لم يخرج منها ذلك الصوت المعتاد الذي كان يملأ جوّها ، وما ذلك الا ان العلم بسوء الادارة وما كان يجب ان تكون عليه قد حرك في نفوسهم ذلك الشعور المحزن فعقد ألسنتهم ان تنطق بذلك الدعاء التقليدي المعتاد . فاذا لم نجتهد في تعميم التعليم الذي يمنح صاحبه هذا الشعور بحيث ينمي ويكثر فينا أمثال هؤلاء الرجال فاننا نخاف ان لايكون لهم خلف وماالموجودون منهم بخالدين ، فاذا لم ينتجوا ويجيء بعدهم من هم مثلهم وخير منهم فلا حياة في الأمة فان النتاج والنماء هما ثمرة الحياة والمقصد منها

يوجد في أكثر الولايات بل البلاد العثمانية افراد من الاحرار الذين استنارت عقولهم بالافكار العصرية ، ومعرفة طرق ترقي الامم والغيرة على المصلحة العامة ، فيجب على الامة ان تقدرهم قدرهم وأن تستعين بهم على ماينبغي لها في هذا الطور الجديد

لست أعني باعتماد الامة على نفسها دون الحكومة في التربية والتعليم ان لاتبالي بمدارس الحكومة . كلا ان الغرض الاول للحكومات من مدارسها هو تعليم طائفة من الامة مايقدرون به على القيام بأعمالها على وجه السداد ، وليس في وسع الحكومة ان تعلم جميع افراد الامة جميع مايحتاجون اليه وانما تقدم بذلك الامة نفسها

كيف تقوم الامة بذلك ؟ هل يعلم كل واحد نفسه ؟ هل يقول كل متعلم لمن يراه غير متعلم هلمّ أعلمك ؟ لالا ، وانما تقوم بذلك الجمعيات الخيرية فهذا الزمن زمن الجمعيات ، ولم ترتق أمة فيه بغير الجمعيات ، وحسبكم ان بعض الجمعيات عندنا قد اسقطت الحكومة الاستبدادية ، وأدالت منها حكومة دستورية ، فأي برهان أقيمه لكم على قوة الجمعيات أوضح من هذا الذي أنتم فيه ترون أثره بأعينكم ، وتلهجون بذكره بألسنتكم

لاينتشر العلم في هذا العصر الا بالجمعيات ، ولا يرتقي نوع من أنواع العلوم الا بالجمعيات ، ولا يقوم أمر من الامور العامة الا بالجمعيات فعلينا ان نبدأ قبل كل شيء بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تنشئ لنا المدارس والكتاتيب ، وان نعضدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون اهلا لترقية أنفسنا وترقية زراعتنا وترقية تجارتنا وسائر موارد الثروة التي تعتز بها الامة

ان في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل والاستبداد الذي

كان يضطهد العلم ويؤيد الجهل ، فبالعلم صارت جزيرة زيلنده اكثر فائدة وانمى زراعة من مصر المشهورة بالخصب والزكاء وإن في بلادنا ماهو أخصب من أرض مصر تربة كأراضي الجزيرة بين النهرين (دجلة والفرات) التي قال هيرودس ابو التاريخ انها كانت تؤتي غلتها من مئة ضعف الى مئتي ضعف أي ان الشنبل (كالاردب) من القمح كان يغل لصاحبه مئتي شنبل . أيجوز ان تبقى هذه الارض التي لا نظير لها خرابا لاينتفع منها بشيء (*

حسبنا من نعمة الدستور اننا صرنا احرارا لايمنعنا مانع من الاستعداد ، ولا من العمل الذي نستغل به أرضنا ونستفيد من مواهبها الطبيعية ، وقد سمعتم من بعض الخطباء كلاما في الحرية فعنَّ لي في هذا المقام أن ازيد شيئا وجيزا على ماقالوا فان المجال ذوسعة

الحرية تقابل الرق والعبودية فمعنى كوننا صرنا احرارا اننا كنا من قبل مستعبدين للحاكم المستبد أو اننا الآن قد خرجنا من هذا الرق والعبودية ، كان الحاكم قادرا على ان يمنعنا من التصرف في انفسنا وأموالنا كما نشاء فأصبح عاجزا عن ذلك . كان يمنعنا بالفعل ان نظهر استعدادنا الفطري للارتقاء من العلوم والاعمال فزال هذا المنع وصار يمكننا ان نخرج من المضيق الحيوي الذي حبسنا فيه ليسهل عليه ان يجعلنا رعية و يكون لنا كالراعي للبهائم ، صار يمكننا ان نكون اناسيَّ وبشرا يتمتعون بمزايا البشر.

يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشري ان استعداد الانسان لا يعرف له حد يقف عنده فاذا عاش البشر ملايين من السنين فانه يمكن ان يكون ارتقاؤهم فيها متصلا ومستمرا ، ويعرف هذا من قارن وقابل بين أولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحاري أفريقية وجبالها وفي بعض جزائر المحيط وبين هؤلاء الذين

*) ذكرت لهم بعد الخطبة حكاية الملك المستبد الذي سمع صوت بومتين تتجاوبان فسأل وزيره عن ذلك وكان الوزير قد ضاق ذرعا باستبداده فقال له انه ذكر يخطب أنثى فسألته ان يمهرها بضيعة خربة فقال لها انني أعطيك في عهد هذا الملك مئة ضيعة أو بلدة من الخراب . قلت وهكذا كان الخراب عندنا بحيث تصير أرض الجزيرة مهرا للبوم وجبال مالطه تزرع بالتراب الذي ينقل من الخارج

يخاطب بعضهم بعضا بالقول والكتابة بواسطة الاسلاك الكهربائية وبغير واسطتها مع بعد المسافات بينهم ، ويتمتعون بغير ذلك من ثمرات العلوم ونتائج المدنية الغربية ما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ماوصلوا اليه من العزة والكرامة الا باطلاق العنان لجياد العقول ، في ميادين العلوم والفنون ، ومساعدة الاستعداد البشري على الرقي في معارج الكمال الاجتماعي اللائق به في ظل الحرية الظليل وحماية الدستور العادل

ولسنا نحن الشرقيين دون الغربيين استعدادا للعلوم والاعمال ولكن عبودية الاستبداد هي التي كانت تطفئ نور فطرتنا وتحجر على استعدادنا فلا تسمح لنا ان ننظر اسرار صنع الله وحكمه في خلقه ، ولا ان نتمتع بما سمح لنا الخالق الرحيم بأن نتمتع به ، كما قال في كتابه الحكيم : (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً)

كان العالم منا إذا أراد ان يؤلف كتاباً نافعا قال نذير الاستبداد إياك ان تفعل فان مولانا لا يريد ذلك ، واذا حدثت محب الفلسفة نفسه بأن يحل إشكالا ناجاه منه الاستبداد في سره إياك ان تفعل فان مولانا لا يحب ذلك ، واذا خطر في بال أحد ان يبحث في اسرار الخليقة ليخترع شيئا ينفع الامة اسرَّ له رسول الاستبداد : إياك ان تفعل فان مولانا لا يروق له ذلك ، كان لا يتجرأ أحد على إظهار أثر علمي أو عملي يرقي الامة في عقولها ونفوسها ، في دينها أو دنياها ، الاوجد الاستبداد له بالمرصاد ، وناله منه ماتعلمون من الاضطهاد ،

فالحرية : هي تحرير البشر من هذه العبودية ، الحرية هي التي يكون بها البشر بشرا ، لاغنما ولا بقرا ، فالانتفاع من الحرية يجب ان يكون بتوجيه الاستعداد الانساني إلى العلوم والاعمال التي ترتقي بها الامة والأخذ بها بلا شرط ولا قيد ، لا باتباع الشهوات ، واتيان الفواحش والمنكرات ، ولهذا كان الحكماء ومحبو الانسانية ينشدون الحرية ، ويبذلون في الجهاد في سبيلها أموالهم وأنفسهم ، ولا غروَ فهم العالمون بالاسرار الالهية ، المودعة في الغرائز البشرية ، وبكونها لاتظهر الا في دائرة الحرية ،

ومن فوائد الدستور المساواة وقد خاض في بيانها الخطباء فأحب ان أزيد عليهم كلمة في إزالة شبهة للناس فيها : يظن بعض الناس ان الدستور جعل الناس كلهم في مرتبة واحدة من كل وجه · وهذا من المحال الذي لا ينال بالدستور ولا بغيره وانما جعل الدستور الناس سواء في الحقوق — كما قال الخطيب السابق — فالغني والفقير ، والصعلوك والامير ، والعالم والجاهل ، والنبيه والخامل ، كلهم سواء في الحقوق ليس لأحد ان يعتدي على أحد في نفسه ، ولا ماله ولا يراعيَ الحاكم أحدا منهم ويهضم الآخر

أما المساواة في المواهب والغرائز وآثارها فليس للدستور فيها شأن فقد فضّل الله بعض الناس على بعض في الرزق والعلم والعقل كما نطق به كتابه ، ودلت عليه سنته في خلقه ، وله في ذلك الحكمة البالغة ، ولو جعل أفراد البشر سواء من كل وجه لما كان الانسان هو هذا النوع من الخلق الذي يظهر اسرار الطبيعة ، ويتمتع بما فيها من الحكم البديعة ، ولما تيسر للبشر ان يوجدوا الخبز الذي يأكلونه والثياب التي يلبسونها

ان تفاوت الناس في العقول والاخلاق ، هو الذي مكنهم من القيام بما ترون من الآثار والاعمال ، فان اختراع السفن البرية والبحرية واستعمالها مثلا لابد فيه من العلماء الطبيعيين الذين اكتشفوا فوائد البخار والكهرباء والمهندسين والميكانيكيين كما انه لا بد له من الفعلة لاستخراج الفحم من المناجم ومن الوقادين لوضعه في النار وهذان العملان من أشق الاعمال وأصعبها · أفرأيتم من كان مستعدا للاكتشاف والاختراع في العلوم وللسياسة والامارة هل تتوجه نفسه وهل يرضى بأن يستخرج الفحم من مناجمه في الارض أو بأن يقذفه في النار ؟ أو تتوجه نفسه لنحو ذلك من الاعمال الحقيرة التي لا بد منها في الاجتماع البشري كالكناسة وما في معناها ؟ كلا إن هذا النوع من المساواة ما كان ولن يكون وانما يتقارب الناس و يتعاطفون بتعميم التربية والتعليم ، فنسأل الله أن يهدي الامة العثمانية في ذلك إلى الصراط المستقيم
